عودة العمالقة

نحن نقف على أكتاف أطفالٍ ونساءٍ عمالقة، من النِّفيليم الذين تمرّدوا على النظام القائم، واختبأوا آلاف السنين تحت جبل إتنا، وكانوا سببًا لكوارث طبيعيّة لا تُحصى بفعل غطرستهم الهائلة؛ وقد عادوا الآن إلى ضوء الشمس ليدلّونا على الطريق إلى راغناروك.
أولئك الذين خلقوا الجزر والجبال، وشادوا أبنيةً هائلة، وتحدّوا سلطان الله علانيةً، هم الآن بيننا.

ستيفانيا بيزون
من رمادِ الماضي مواردُ المستقبل
أكيرا زاكاموتو. المجمّع الصناعيّ في بورتو مارغيرا. إنّ المشهد الذي اختاره الرسّام التوريني للوحات هذا المعرض مشهدٌ رمزيّ. اختيارٌ ليس اعتباطيًّا — مشحونٌ بمعانٍ عميقة — ولا يترك إلّا حيّزًا ضئيلًا للشكّ في التأويل. يعود مولدُ بورتو مارغيرا وتطوّرها إلى عام 1917، حين نال رجلُ الأعمال البندقيّ فولبي من وزارة الأشغال العامّة الإدارةَ الماليّة لمشروع إنشاء الميناء الصناعيّ. وفي غضون خمسين سنة تضاعفت المنطقة الصناعيّة ثلاث مرّات، وتحوّلت من إنتاجٍ متّصلٍ ببناء السفن إلى مركزٍ دافعٍ لقطاع البتروكيماويّات. زاد الازدهارُ الاقتصاديّ الإنتاجَ، وتضاعفت معه مشكلاتُ تلوّث الهواء ومياه البحيرة، والعواقبُ الخطيرة الموثّقة على صحّة العمّال. وإذ كانت مسرحًا لاندماجاتٍ كبرى ولمعاركَ واحتجاجاتٍ نقابيّة، بدأت مارغيرا، مع أزمة قطاع البتروكيماويّات، تنكفئ من جديد على نفسها. وشيئًا فشيئًا هُجرت المصانع بانتظار مشروعٍ لإعادة التأهيل وإزالة التلوّث. وفي هذه اللحظة بالذات، تحت سماواتٍ رصاصيّة مشبعة بالتلوّث، ومن خلف أعمدة دخانٍ منذرة، يصل بخطًى واسعة أطفالُ زاكاموتو. فلننسَ ملائكة الحبّ الشُّقر في أيقونات الماضي، فأطفال أكيرا ليسوا أطفالًا عاديّين. إنّهم عمالقة، لا في القامة وحدها، يهدمون بنظرتهم — الصارمة تارةً والمنذرة تارة — المداخنَ وهياكلَ المصانع. وإذ ينظرون في وجوهنا مباشرةً، يتّهموننا. ومن الصعب أن نشيح بوجوهنا تفاديًا لعيونهم، لأنّنا أمامهم جميعًا مسؤولون عن الخراب البيئيّ والاجتماعيّ الذي نجحنا في صنعه على مدى قرن. والأساليبُ الأيقونيّة التي اختارها الفنّان لمقاربة موضوع العمل مثيرةٌ للاهتمام بقدر ما هي غير مسبوقة. ففي هذه الصفحات التصويريّة لا يُستحضَر العملُ إلّا بالمباني التي احتضنته طوال قرن، تمامًا كما أنّ حضور العمّال مضمرٌ ولا يُصرَّح به أبدًا. وفي هذا السياق أيضًا يؤكّد زاكاموتو أنّه رسّامٌ واقعيّ لا يحترم عمدًا قواعد هذا النوع من الرسم. لا يصرخ أكيرا بإدانته للمجتمع المعاصر علانيةً، بل يُساميها، وبالتسامي يدينها بطريقٍ غير مباشر. إنّها أعمالٌ ذات وقعٍ بصريّ قويّ ومباشر، تلعب فيها الدرجاتُ الداكنة الخشنة تقابلًا لونيًّا موفَّقًا مع أحمر قمصان الأطفال، وهو أحمرٌ يذكّر على نحوٍ ذي دلالة بصفائح المصانع. وحين نتأمّل هذه اللوحات ندرك أنّ كلّ شيء في موضعه تمامًا، وأنّ ليس فيها زائدٌ ولا ما يزعج البصر، ولا وصفيّةَ فائضة غايتها مغازلةُ المتفرّج وملءُ الفراغ. وكعادته يعرف الفنّان كيف يوازن بحكمةٍ بين الغيابات والحضورات، محمّلًا إيّاها بالمعنى. لكن لنجرّب الآن أن نغيّر زاوية النظر ولنتأمّل هذه التركيبات التصويريّة من زاويةٍ أخرى. سندرك أنّ لا شيء في الحقيقة قد انتهى تمامًا، وأنّ ثمّة شقًّا من الأمل: فالسماوات الثقيلة الرماديّة تفسح مجالًا لبقايا زرقةٍ تفتح الأفق على مستقبلٍ يمكن، بل يجب، أن يكون مختلفًا. ولو لم يشأ زاكاموتو أن يمنح نفسه، ويمنحنا، إمكانَ الخلاص، لترك ملامحَ المباني الصناعيّة تتكلّم وحدها. لكنّ الأبطال الحقيقيّين هنا هم الأطفال، وهم بحكم التعريف وعدُ المستقبل ورجاؤه. هم الذين، بتحطيمهم الماضي بلا رحمة، يمنحوننا إمكان بناء أسس غدٍ مختلفٍ وأفضل. وهكذا فإنّ بورتو مارغيرا ليست سوى شعارٍ قرنٍ غيّر الاقتصاد والمجتمع تغييرًا

جذريًّا، وداس مرارًا حقوق الإنسان والأفراد بأعيانهم. والطفلُ الذي ينظر إلينا بابتسامةٍ ساخرة في عمل «نهاية العمل» هو في الحقيقة نقطةُ الانطلاق التي منها نبدأ من جديد. فكلّ نهايةٍ تفترض دائمًا بدايةً جديدة.

ستيفانيا بيزون
على أكتاف العمالقة
العالم كما يراه أكيرا زاكاموتو. من المعروف أنّ الحياة الراشدة، عند الفنّانين وحدهم، امتدادٌ طبيعيّ للطفولة؛ ولهذا يُقال إنّ الفنّانين أطفالٌ كبار. ألبرتو سافينيو
من لقائي الأوّل بأكيرا زاكاموتو أذكر بلا شكّ محاولتي التي لم أُحسن إخفاءها لالتقاط أثرٍ شرقيّ في ملامح وجهه: لا شيء. أكيرا ليس يابانيًّا، ولا في شجرة نسبه أجدادٌ من بلاد الشمس المشرقة. ثمّ إذ قرأتُ سيرته، التي تحكي عن اختطاف الكائنات الفضائيّة له، تساءلتُ بفضولٍ عن نوع الرسم الذي قد يمارسه. كثيرًا ما يحدث لي، بعد التعرّف إلى فنّان، أن أحاول حدس نوع رسمه. أطفال، كثيرون، ملتقَطون في أكثر تعابيرهم عفويّة، لكن أيضًا وقبل كلّ شيء في أكثرها إدهاشًا. لا، ما كنتُ لأتوقّع أن يرسم أكيرا، لا فحسب بل أساسًا، أطفالًا. الطفولةُ تعيش في داخل كلٍّ منّا وإلى جانبه، مع أنّها البعدُ الوحيد الذي أُقصينا عنه جميعًا بلا رجعة. إنّها كونٌ متعدّد الأشكال، فاتن، ومجهولٌ وغامضٌ في آنٍ معًا. ومنذ قرون تستدعي انتباهَ الفلاسفة والشعراء والكتّاب والفنّانين وقدرتَهم على الخلق؛ إنّها رحلةٌ إلى الوراء قلّةٌ استطاعت مقاومتها، وحاول كلٌّ منّا، بصورٍ مختلفة، أن يخوضها مرّةً واحدة على الأقلّ في حياته. ولعلّ ذلك لأنّها تمثّل، في آنٍ واحد، ماضينا وأحدَ مستقبلاتنا الممكنة. فاتنةٌ بلا شكّ. ومقلقةٌ بلا شكّ. والحقيقة أنّ الطفولة، إذا نُظر إليها من بعيد، تصطبغ دائمًا بحزنٍ عميق، لأنّها العالم المفقود، ولأنّها تمثّل قبل كلّ شيء طريقةً في الإحساس والرؤية واللمس، فريدةً لا تتكرّر، فقد الرشدُ معرفتها المباشرة. نحسد الأطفال على الدهشة التي ينظرون بها إلى الأشياء، والتي يحاولون بها سبر سرّ الحياة. أساذجٌ هم؟ لا، على العكس تمامًا. ولوحاتُ زاكاموتو تثبت ذلك. فلننسَ الرؤوس الشقراء والأشكال اللطيفة لملائكة الحبّ. أطفالُ أكيرا عمالقةٌ حقيقيّون — لا في القامة وحدها — حَمَلةُ لحكمةٍ قديمة وما تزال في الوقت نفسه في طور التكوّن. وهكذا نصير نحن الكبار أقزامًا على أكتاف هؤلاء الأطفال العمالقة، وإذ نتسلّقهم تُتاح لنا رؤية ما وراء. ما وراء المرئيّ، ما وراء الملموس. ما وراء كلّ ما يربطنا بالحاضر ويُلزمنا به. لكن لا ندع لوحات زاكاموتو تخدعنا. فرغم بساطتها البنائيّة، تحمل رسائل لا تُفكّ شفرتها فورًا ولا بسهولة. وأعني بالبساطة ذلك التوازن النظيف الخطّيّ الذي يحكم كلّ صفحةٍ من صفحاته التصويريّة. وإذ نتأمّل عملًا له، لا نلبث أن ندرك أنّ كلّ شيء في موضعه تمامًا، وأنّ ليس فيه زائدٌ ولا ما يزعج البصر، ولا وصفيّاتٍ عابثة غايتها ملء الفراغ. الغياباتُ والحضورات موزونةٌ بحكمةٍ بيد فنّانٍ لا يعنيه، في رأيي، أن يُرضي بأيّ ثمن. لقد استوعب أكيرا تاريخ فنّ القرن العشرين، وبدا في الوقت نفسه أنّه محاه محوًا تامًّا. أعمالُه بلا ماضٍ — ولذا لا جدوى من البحث فيها عن اقتباساتٍ وصلات — لكن لها حاضرٌ يحيا ويصرخ متسلّطًا في كلّ تفصيل. فلنعدّ زاكاموتو إذن رسّامًا واقعيًّا من زماننا، لا يصرخ بإدانته للمجتمع المعاصر بل يُساميها، وبالتسامي يدينها بطريقٍ غير مباشر. إنّه يقلب العالم الذي نعرفه، مغيّرًا موازين القوى بين الأشياء: يأخذنا بيدنا إلى عالمٍ ليليبوتيّ تصير فيه البيوت صغيرةً فجأة، ويصير الأطفال عمالقة — وليس مصادفةً — يديرون لنا ظهورهم في أغلب الأحيان. يأخذنا إلى شاطئٍ تعلو فيه مجموعةٌ من النساء الناضجات هيئةُ فتاةٍ عملاقة ترتدي العلم الصينيّ، تخرج من البحر وتركض مسرعةً نحو الشطّ: ها هو تسامي الواقع، الذي يتّخذ مع ذلك ملامحَ إنذارٍ وتحذيرٍ ممّا قد يخبّئه لنا المستقبل. لكنّ عالمه هو أيضًا العالم الذي تضيع فيه أنييزه سحريًّا بين الغيوم، والذي فيه ماتّيو — صبيٌّ وبطلٌ في آنٍ معًا — سوبرمان يستريح من عناء حملنا

على كتفيه. عالمُه هو ما نستطيع رؤيته من خلال نظرة الطفل الذي يبدأ، مفعمًا بالأمل وفي يده كيسٌ وجبته، يومه الأوّل في المستقبل. وهو عالمٌ يملؤنا، رغم كلّ شيء، بالأمل، ويروق لنا.

Luca Motolese

motolese.com — النصّ الأصليّ بالإيطاليّة